حول كتاب الدكتور جورج حنا

معنى القومية العربية

بقلم انعام الجندي

كلما حرصنا على قوميتنا ، كان واجبنا أقوى في الحرص عليها من المفاهيم المغلوطة . ورغم ايماننا ان خطأ المفاهيم لا يمكن ان يثبت طويلا امام الحقيقة القومية ، نشعر بضرورة كشف الاعطاء لجمهور شعبنا حتى لا يلابس ذهنه الغموض ، في معترك فكري ومبدئي ، نحن أشد ما نكون فيه حاجة الى الوضوح ، لكثرة ما تحاول الافكار الدخيلة المصطنعة التسرب الى اذهاننا .

موضوع القومية واسع ، لا يمكن ، وربما لا يجوز ان نبحثه في عجالات لا تتفق مع سعته وعمقه . ومع ذلك ، فان كتاب الدكتور جورج حنا « معنى القومية العربية » يدعوني الى الكتابة رغم ضيق المجال ، لان موضوعه خطير ، ولا يمكن ان نمر به عابرين .

ثمة ابحاث ثلاثة في نهاية الكتاب لن أتناولها بالبحث ، فالافكار حولها تكاد تكون معروفة لكثرة ما نوقشت ، ثم انها فرع للفصول الاولى من الكتاب .

لا اريد ان اناقش مبررات وضع الكتاب والغاية منه ، كما لا ادعي ان افكاره كلها او بعضها خاطئة ، فمما لا شك فيه ان ثمة افكاراً صائبة جديرة بان يؤخذ بها ، الا ان لي ملاحظات سأحاول ان تكون مقتضبة واضحة قدر الامكان ، وحسب ما يتطلبه المجال .

يطالعنا الدكتور حنا (ص ١١) بفكرة كان ضحيتها كثيرون من كتابنا وكتاب الاعاجم ، وهي ان الوجود القومي لم يكن له وجود اطلاقا قبل القرن التاسع عشر او قبل القرون الوسطى .

ولو صح الامر لأجرمنا بحق كثير من الامم . فماذا نقول بشأن الامة الهندية والصينية والفارسية وغيرها من الامم؟ الم يكن لها قوميات ؟ واذا لم تكن للامة قومية فماذا تكون اذن ؟ قد يكون ظهور بعض الامم قد تأخر عن البعض الاخر، الا انه لا يمكن لامة ان تنشأ بدون قومية . ولقد تأخر ظهور بعض الامم الاوروبية فعلا عن امم آسيا . ولكن هذا لا يجب ان يوقعنا في خطأ الاعتقاد ان الامم الاسيوية لم تكن ، او لم تكن لها قوميات .

ان القومية والشعور القومي ملازمان لنشوء الامم، وهذا امر طبيعي ، بل ان مظاهر الشعور القومي تسبق نشوء الامم . ومن مظاهر هذا الشعور ارادة مجموعة ، قبلية او غير قبلية، أن تكون مجتمعا واحدا هو الامة . ومتى استمر هذا الكيان عبر الزمن وضح الشعور القومي ، اكثر فاكثر .

ان الخطأ الشائع في ان القوميات ظهرت في القرن التاسع عشر ، اتى من ان بحث المفاهيم القومية، وخصائص القوميات لم ينشأ الا في ذلك العهد ، وكان الدافع اليه المعرفة العلمية، والصراع الذي نشب آنذاك بين امم الغرب .

مثل هذا الخطأ يجب ان يزول من أذهاننا ، لانه يجر البعض الى اخطاء ادهى ، وقع فيها الدكتور حنا ذاته ، اذ يتضح في كتابه ان القومية العربية لم تنشأ الا حديثا ، وبعد اتصال العرب بالغرب .

ان عدم بحث موضوع القومية ، بل عدم تسمية الروابط التي تربط بين افراد الامة الواحدة بالقومية ، لا يعني ابدا ان لا يكون للامة الهندية قومية ما.

وخطأ آخر يقع فيه الدكتور ، وهو القول « بالقومية الام » اذ ليست هناك قومية ام واخرى بنت . فكل قومية متميزة عن الاخرى ، رغم ادعاءات بعض الامم على الاخرى، ورغم لقاء الامم ببعض الميزات كالشعور الانساني . ولا يصح الاخذ بهذا التعبير « التعبير الام » الا اذا كان قد اخذه الدكتور على سبيل الاستعارة لا اكثر .

وهناك خطأ خطير آخر ، ما كان يجب ان يقع فيه الدكتور وقد ارتكبه ، لانه اعتبر النشوء القومي نتيجة لصراع صناعي ومصالحي ، فيما يبدو ، لا نتيجة لارادة الانسان في بناء مجتمع افضل ، واعمق رابطة ، واثبت على الزمن ، واكثر صلات قربى ومحبة وتضامن . اما هذا الخطأ فهو قوله : « كان نشوء القومية آنذاك على اساس الدولة والحكم لا على اساس مجتمعي تقدمي انساني » (يقصد في القرن التاسع عشر) ص ١٧ .

القومية لا تنشأ على اساس دولة وحكم ، ولا تقوم على غير اساس انساني . فهي بطبيعة ارادة ابنائها تهدف الى زيادة في السعادة والحب والتضامن والدفاع عن الحق والوجود . وهذه كلها عناصر انسانية لا يمكن لانسان ان يحيا بدونها ولا ينكرها احد عليه الا اذا كان يريد القضاء على انسانيته .

ولئن استغلت الدول وحكامها والمستغلون الشعور القومي عند الشعب واستطاعت توجيهه في غير وجهته ، فليس ذلك من عناصر القومية ، وانما هو دخيل عليها مفروض . وعصرنا الحاضر يكشف هذه الحقيقة بجلاء . اذ ان كل الشعوب تقريبا بدأت تعود الى حقيقتها ، وتعتبر ان من الجرم ان تجعل من احساسها القومي ، وسيلة للقضاء على القوميات الاخرى . بل هي تعتبر ان كل وجود قومي ضرورة وحق لكل الشعوب ، لتساهم في اسعاد البشرية جمعاء.

ولعل قول الدكتور في تعريف القومية (ص ٢١) انها

صفات ثابتة وخصائص مشتركة ينفي ان تبنى القومية على اساس غير انساني ، ما دام من خصائصها ان تكون انسانية .

وينتقل الدكتور الى خصائص القومية ويحددها بخمس : هي اللغة والعامل الجغرافي اي الارض (ص ٢٣) التاريخ ، المصالح المادية ، العامل الروحي واهم شيء فيه الثقافة الوطنية القومية .

رغم ان الدكتور حنا ينفي ان يكون العامل الجغرافي وحده يشكل قومية ، فانه يعتبر من خصائص القومية. والواقع ان القوميات حين تكونت أخذت لها من الارض ما يضمن بقاءها ، فالارض مجال حيوي ، اختارت الامم ، حسب حاجتها ، حدوده ، ولم يكن محددا قبل وجودها ، ولم يساهم في خلق الامم ، ولذلك لا يمكن ان يكون من الخصائص ، مع العلم ان هذا المجال اصبح ضروريا لكل امة بعد ان تكونت . ولعل بحث الدكتور لهذه القضية غير عنوانها فهو يقول في نهاية البحث :

التعايش المشترك على ارض معينة ،احدى الخصائص . وهذا غير ما لو قلنا ان العامل الجغرافي عنصر من عناصر القومية .

اما اللغة فقد اخذها الكاتب سريعا . ولعله رأى فيها اداة جامدة للتفاهم فحسب . ان اللغة كالكائنات الحية ، تنطبع بطابع الامم ، وتتطور بتطورها ، وتتسم بسماتها ، وتحمل ثقافتها وحضارتها ، ونلاحظ ذلك بطريقة اشتقاقها ، واصطلاحاتها ، والتعابير النفسية فيها ، وما الى ذلك . وخاصة اللغة العربية التي تحمل بطبيعة تكوين حروفها ، وطرق اشتقاقاتها ، صور النفس العربية ،خلال التاريخ : بجميع الوانها ، ونظرة الانسان العربي لما حوله ،وتصوره له. ولعل الدكتور حين قارن بين اللغة الانكليزية والاميركية (ص ٢٢) لم ينظر الى المشكلة الا من هذه الناحية .

اضف الى ذلك ان المؤلف نسي مرة اخرى العامل الارادي. فنشوء القومية ليس خارجا عن نطاق الانسان ، انه قبل كل شيء كائن في ارادة الانسان ، ومن الخطأ ان ندعي ان العامل الاقتصادي او غيره ، يفرض على الانسان ان يحيا في مجتمع واحد له روابط معينة او صفات معينة . ان ارادة الانسان في البقاء والعيش السليم ، عنصر اساسي في تكوين الامم .

يتبع الاخطاء السابقة ، اخطاء اخرى ، مشتقة منها فيما اعتقد ، كأن يقول الدكتور « كان الحس القومي مقتصرا على الطبقة الفوقية في القوميات الكبيرة » (ص ٣٦) . والحس القومي لا يمكن ان يكون مقتصرا على طبقة واحدة من الشعب . انه احساسهم بوجودهم واستمراره ، فكيف نحرمهم منه ؟ قد يحاول البعض ، كالطبقة الفوقية حسب تعبير الدكتور ، تشويه هذا الحس واستغلاله ، ولكنه لن يستطيع ان يحرمه الشعب. بل الاحرى ان نقول ان مصلحة هذه المجموعة ورغبتها في الاستغلال ، كانتا على صراع من حسها الاصيل بالقومية ، وكانتا تتغلبان عليه .

ومن هذه الاخطاء قوله (ص ٣٧) : ان الصلة بين القومية والانسانية رهن بهذه اوتلك (اي فكرة القومية الاستعلائية او التقدمية حسب تعبيره) . والواقع ان القومية انسانية بطبيعتها ، ولا يمكن ان تتناقض مع الانسانية . اما ما يلصق بالقومية من مفاهيم مغايرة لحقيقتها ، فلا يمكن ان ينال هذه الحقيقة .

قد يكون الدكتور يخطيء التعبير احيانا فيقول شيئا ويريد آخر ، ولعل ما يوضح هذا قول الدكتور ص٣٨«ان القومية بمفهومها التاسع عشري كانت قومية تعصبية ..» والقومية ذات مفهوم واحد دائما .. ولكان من الخير ان يأخذ المفاهيم فيناقشها ، لا ان يقول ان القومية كانت كذا او كذا.

واذا سرنا مع الدكتور شوطا آخر الى بحث : « القومية على المحك » . طالعنا اول ما طالعنا، ان الكاتب يبدأ من نقطة الصفر . فاذا القومية العربية مستجدة عنده ، تكاد تسعى الى الوجود في وقتنا هذا فحسب،او كأنها شيء في الامكان ، وغير موجود حتى الآن . وان له مقدمات ، لا بد ان ينشأ عنها قومية عربية .

مثل هذا التفكير السلبي ، لا يمكن ان يكون اساسا لبحث القومية العربية . اضف الى ذلك انه يجر الكاتب الى اخطاء كثيرة اهمها القول بشعوب عربية ، الى جانب القول بامة عربية وقومية عربية . ما رأي الدكتور لو قلنا شعوب فرنسية ، وشعوب انكليزية ، وشعوب هندية ؟

دار الآداب تقدم

الشاعرة العراقية الكبيرة

نازك الملائكة

في ديوانها الجديد الرائع

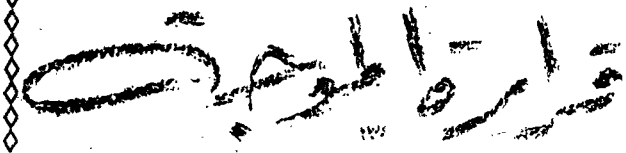

صدر حديثاً

ان منطق اخصام القضية العربية يحتضن الدكتور رغما عنه فيما يبدو . لقد جزانا المستعمر ، واطلقت ، نتيجة للتجزئة كلمة شعوب على اقسام الشعب العربي الموجود في الاقطار المجزأة ، وهذا لا يمكن ان يخدعنا عن حقيقة واضحة ، هي ان ثمة شعبا عربيا واحدا لا شعوبا ، ولو كان ثمة شعوب لكانت ثمة قوميات .

هذا المنطق هو الذي اضل الدكتور ، فاعتقد ان القومية العربية في مجال الامكان ، وليست حقيقة موجودة . رغم انه يطلق من حين لاخر تعابير تقول : « القومية العربية حقيقة واقعة » او ما شابه . فالتفاصيل التي يوردها تشعرك بالتناقض بين قوله هذا ، وحقيقة اتجاه البحث .

وثمة قضية لا يجب ان نمر بها عابرين ، وهي اعطاء اليهود صفة الشعب المتميز . مع ان هذه التسمية جاءت من اسم دينهم لا من كونهم شعبا متميزا. فقد ورد ص ٩٣ قول الدكتور : « فاليهود عاشوا اجيالا في البلاد العربية ». وقوله « ولكن الاستعمار لا يفيده ان يتعايش اليهود مع العرب تعايشا سلميا . » وهذا يعني ان الدكتور يرى ان العرب الذين آمنوا باليهودية قد اصبحوا منذ القدم غير عرب . والسموأل مثلا غير عربي لانه يهودي. ان العرب لم يفرقوا يوما بين انفسهم لانتماء بعضهم الى هذا الدين او ذاك . ولئن حصلت في المرحلة المتأخرة هذه ، بعض التفرقة ، فما ذلك الا بفعل الاستثمار وضعف الوعي القومي . اما اليهود من العرب ، الذين ارتضوا لنفسهم الصهيونية مبدأ ، وناقضوا واقعهم ، فحكمهم حكم الخونة، الى اي دين انتسبوا .

ونحن حين نعتبر اليهود من العرب ، غير عرب في الاصل ، فانما نؤخذ بالمنطق الاستعماري الذي قال ان اليهود شعب اضطهده العرب ، ثم حاول من هذا الاساس اقامة الوطن القومي الصهيوني ليكون مسمارا في الوجود العربي.

ولا اريد هنا ان اناقش نيات اليهود الذين لم يذهبوا الى فلسطين ليقيموا دولة صهيونية ، وانما اقول ان من يحاول ذلك منهم ، حكمه حكم كل عربي يخون بلاده . الا يعدم المسلم والمسيحي حين يخونان ؟ كذلك يكون حكم من يخون من اليهود . اما ان نجعل الدين صفة تستطيع خلق شعب قوي صحيح ، فتناقضه اقوال الدكتور في الصفحات السابقة .

لم آت في بحثي على كل الاخطاء ، لان بعضها ،كما قلت سابقا ، مشتق من البعض الاخر الاهم .

واعود لاقول : كان البحث يتطلب تفصيلا اكثر لولا ضيق المجال . وان في دراسة الدكتور اشياء مفيدة . الا اني افضل لو ان بحث مثل هذه المواضيع ، لا يوضع بين ايدي القراء قبل ان يكون مدروسا دراسة تتناسب مع قيمته وخطورته .

انعام الجندي

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني
بيروت - ص.ب ٣١٧٦ - تلفون ٢٧٩٨٣

تعلن عن صدور منشوراتها الجديدة :
الى حضرات اساتذة ومدراء المدارس المحترمين في لبنان والبلدان العربية الشقيقة
قبل ان تقرروا كتبكم للسنة الدراسية المقبلة اطلعوا على السلاسل المدرسية الآتية :

سلسلة الجديد في القراءة العربية ٧ أجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي (الشهادة الابتدائية)
سلسلة الجديد في الأدب العربي ٦ أجزاء لمرحلة التعليم الثانوي (البريفه والبكالوريا)
السلسلة القصصية للطلاب الأدب ٣ أجزاء لمرحلة التعليم الثانوي
سلسلة التربية الصحية في المدارس ٢ جزآن لمرحلة التعليم الثانوي
سلسلة الاشياء والعلوم الجديدة ٥ اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي
سلسلة لتعليم القراءة الانكليزية ٦ اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي
THE NEW DIRECT ENGLISH COURSE
سلسلة لتعليم قواعد اللغة الانكليزية ٦ أجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي
THE NEW DIRECT ENGLISH GRAMMAR
سلسلة لتعليم القراءة الفرنسية ٣ أجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي
MON NOUVEAU LIVRE DE LECTURE ET DE FRANÇAIS
سلسلة الخطوط العربية الجديدة ٥ اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي
سلسلة لتعليم الخط الانكليزي ٥ اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي
NEW SCRIPT AND CURSIVE HANDWRITING
سلسلة لتعليم الخط الافرنسي ٥ اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي
LA NOUVELLE CALLIGRAPHIE FRANÇAISE

هذا ما نقدمه لكم عاجلا ايها حضرات الاساتذة والمدرين والمربين الافاضل ... رجاؤنا ان تجدوا فيه ما يساعدكم على المهمة التعليمية الملقاة على عاتقكم ... وفقنا الله واياكم الى ما فيه خير الناشئة

تاريخ العلامة
ابن خلدون
ظهر الجزء الحادي عشر وهو بداية المجلد الثالث